٨ ـ الزندقـــة
فى عهد المهدى العباسى
أصولها الفارسية

للأستاذ محمد خليفة التونسى

[بقية الكلام فى مذهب زرادشت وكتابه : الثنوية : مزدكيون وابن ديصان]

يروى الراغب الأصفهانى أن « زرادشت شرع زواج الأمهات[1] » كما يروى القلقشندى أن المجوس « يستبيحون فروج المحارم من البنات والأمهات ، ويرون جواز الجمع بين الأختين[2] » كما يروى الجاحظ فى أخباره فى الحمق أن ابن عوانة الكلبى قال : « استعمل معاوية رجلا من كلب فذكر يوما المجوس وعنده الناس ، فقال : لعن الله المجوس ينكحون أمهاتهم! والله لو أعطيت مائة ألف درهم مانكحت أمى ! فبلغ ذلك معاوية فقال : قاتله الله ! أترونه لو زاده على مئة ألف فعل ! فعرله[1] » وقال اليعقوبى عند كلامه فى الفرس : إنها « تنكح الأمهات والبنات ، وتذهب إلى أنها صلة لهن وبرهن وتقرب إلى الله فيهن[2] » ، وينسب عبد القاهر البغدادى إلى المجوس هذه الأنواع وغيرها من الزواج كزواج بنات البنات وبنات البنين[3] وقد ظلت ضروب الزواج هذه شائعة بين المجوس وغيرهم من الطوائف الأخرى حتى بعد فتح المسلمين فارس وظل المسلمون يعيبونهم بها ، وينكرونها عليهم ، وليس من همنا هنا أن نبين رأينا فى هذه الأنواع بل نرجئه إلى الكلام فى أثرها عند الزنادقة ، وحسبنا أن نبين أن العرب قد عرفوا فى جاهليتهم بعض هذه الأنواع وكانوا يستبيحونها ولا ينكرونها حتى جاء الإسلام فأنكرها عليهم وعلى غيرهم[4] وحدد من يحل للانسان أن يتزوجهن ومن يحرم عليه الزواج منهن .

عرف العرب فى الجاهلية زواج الأم كما حكى عنهم المؤرخ اليونانى استرابو ، وعرفوا زواج امرأة الأب فقد تزوج الصحابى الجليل عمرو بن معد يكرب الزبيدى امرأة أبيه فى الجاهلية ، ولم يكن راضياً عنها[5] كما تزوجت باهلة أم القبيلة المعروفة بهذا الإسم[6] زوجها معدّ أبا قبيلة باهلة ثم تزوجت بعده ابنه ، بل عرف العرب من ضروب الزواج ما يسمى نكاح الضمد وهو — كما جاء فى السيرة الحلبية — أن تجتمع جماعة دون العشرة ويتزوجوا امرأة واحدة[7] ولذلك كله أسبابه الاجتماعية مما

(١) محاضرات الأدباء ج ٢ ص ٢٤١ .
(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

ويرجع بفنى فراقيات عاصفات النساء ورة

ترى يسهل ركوب البحر فأعود أرى لبنان مرة ثانية ؟ ترى أعود إلى بيتى وكرى أكتفى بالعيش الهنىء ؟ أترانى أعود أخيراً إلى ضيعتى أسمع صرير الساقية فأتخذ منه لحنا للغناء والتذكر بالأحباب الفارقين وطنهم ؟

هيهات ! ! تلك أمانى تختلج فى فؤاد المهاجر ، ولكن مغالبة الحياة ، وزحمة العمل ، والتقيد بروابط الزواج والنسل تهدىء حركة تلك الخلجات ، وتخفف من اضطراباتها . أما وما برحت أبواب المهجرة مفتوحة للبنانيين ، وما دامت المدينة اللبنانية تجذب أبناء الضياع إلى حواضرها لتلفظهم من جديد إلى ميادين رحبة فى طلب الرزق ، فإن الرجال اللبنانى سيجد معين النزير الذى يبعث فيه روح الحنين والشوق فينشد القصائد الحية كما أنشدها أميل مبارك فى « أغانى الضيعة » .

هبيب الزعلاوى

فقال : قاتله الله ! أترونه لو زاده على مئة ألف فعل ! فعرله[1] »

(١) البيان والتبيين (طبعة السندوبى الثانية) ج ٢ ص ٢٠٤ .
(٢) تاريخ اليعقوبى (طبعة ليدن سنة ١٨٨٣) ج ١ ص ١٩٩ .
(٣) الفرق بين الفرق ص ١١ ، ١٨ ، ٧٥ ، ٢٧٠ ، ٢٨٥ ومواضع أخر .
(٤) سورة النساء : الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .
(٥) يتبين ذلك من البيت الآتى المنسوب إليه .
فلولا إخوتى وبنى منهما ملأت لها بدى شطب يمانى
(٦) انظر ما كتب فى مادة باهلة فى دائرة المعارف الاسلامية .
(٧) روى كثير من المؤرخين فى سيرة الصحابى الجليل عمرو بن العاص أن أمه كانت زوجا للعاص وغيره فى وقت واحد ، وقد ادعى كثير منهم عمرا بعد ولادتها إياه ليكون ولده ، ولكن أمه ألحقته بالعاص دونهم لأنه — كما قالت حين سئلت — كان ينفق على بنائها لا لسبب آخر ، وقد بقى عمرو يعير بذلك حتى بعد إسلامه وممن عيره بذلك للصحابة الأجلاء عثمان وعمار بن ياسر والحسن عليهم رضوان الله .

لايعنينا هنا الخوض فيه ، ويكفى أن نبين أنه من التعنت واللغو النظر إلى أنواع الزواج التى كانت تجرى عند المجوس بالعين التى ننظر إليها بها لوأنها وقعت الآن ، فقد تحولت أسبابها الاجتماعية ، وصرنا الآن ننكرها ونعدها فاحشة ومقتاً ، ونرجح أن زرادشت لا يسأل وحده عن هذه الأنواع من الزواج ، فهو كما نرجح لم يشرعها ، وكل ما عمل أن أقرّها فبقيت سارية بين المجوس ، وكان لها أثرها عند الزنادقة قبل عهد المهدى العباسى وأثناءه وبعده ، فقد زاولها بعض الزنادقة فى عهـده على ما سنبينه إن شاء الله .

وقال الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » ما نصه : « ومما أخبر به زرادشت فى زندوستا ، قال : سيظهر فى آخر الزمان رجل اسمه أشيزريكا ومعناها الرجل العالم بالدين والعدل ، ثم يظهر فى زمانه بلَخ فيوقع الآفة فى أمره وملكه عشرين سنة ، ثم يظهر بعد ذلك أشيزريكا على أهل العالم ويحيى العدل ويميت الجور ، ويرد السنن المغيرة إلى أوضاعها الأولى ، وينقاد له الملوك وتتيسر له الأمور ، وينصر الدين الحق ويحصل فى زمانه الأمن والدعة وسكون الفتن وزوال المحن » .

ونحن لا نعدم ملامح أشيزريكا هذه فى كل المنقذين كما تصورتهم الفرق الفارسية والإسلامية[1] التى آمنت بهـــم وانتظرتهم ، وهذه الملامح تتضح لنـا فى المهدى الذى آمن به الشيعة العلويون على اختلاف طوائفهم ولا يزال باقياً فيهم حتى الآن وهو ركن من أركان مذهبهم ، كما تتضح ملامحه فى المهدى الذى اخترعه العباسيون وآمنوا به ، ونحن نرجح — وسنبين الأسباب — أن أبا جعفر المنصور إنما سمى ابنه محمدا — المهدى حين رأى الشيعة العلويين ينادون بالمهدى منهم ، واخترع أولئك وهؤلاء الأحاديث فى المهدى ليشدوا بها أزرهم ، كما اخترع الأمويون منقذاً سموه السفيانى يعيد إليهم مجدهم وكان ذلك فى أول عهد الأمويين حين وقع الخلاف بين أفراد البيت الأموى فنهد لهم شياطين الشيعة فلم يكذبوا بالسفيانى بل صدقوا به . غير أنهم نحلوا النبى عليه السلام من الأحاديث ما يدل على أن السفيانى بعد ظهوره وذيوع أمره وسلطانه وجوره فى الناس سيأتى له المهدى من آل البيت فيقتله ويملأ الأرض عدلا وأمنا كما ملأها السفيانى جوراً وخوفاً فأسندوا بذلك إلى السفيانى مهمة بلياره الفارسى وإلى مهديهم مهمة أشيزريكا ، وفى ذلك ما فيه من الإشارة إلى قيام الدولة العباسية بعد الأموية ، والزنادقة مهديوهم المنتظرون كلما ساءت الأحوال واحتاج الأمر إلى مخلص ، فمنهم مانى ومزدك وأبو مسلم الخراسانى والمقنع صاحب الزنادقة البيضة وعبـد القهار صاحب المحمرة فى عهد المهدى العباسى ، ومنهم بعـده بابك الخرمى صاحب الفتنة التى وقفت الخلافة عاجزة عن إطفائها نحو عشرين سنة ... وقد كان لفكرة المنقذ أثر كبير فى الزنادقة ، وإن كان هذا الأثر فيما نرجح يرجع أكثر ما يرجع إلى إيحائه فى النفوس كلما تعقدت الأمور الاجتماعية واحتاج الحال إلى منقذ . فأثر هذا الإيحاء أكثر من أثر الاطلاع على ما كتب زرادشت وغيره .

قدمنا أن زرادشت خلف مذهباً وكتابا .

فأما المذهب فقد تحدثنا بما يهمنا منه فيما سبق بقدر مايسع المقام ، وقد اتضح لنا من بيان ما بينا منه أن زرادشت كان فيلسوفاً ومصلحاً ومشرعاً ولم يكن نبياً ولا متنبئاً ولا صاحب دين كما نفهم من معنى الدين بالرغم من أن مذهبه يحتوى على بعض الشعائر والآراء التى تحسب من الدين ، فليس المقصود بتلك الآراء فى الكون إلا أن تكون أساساً للآراء الفلسفية والتشريعات الإصلاحية التى هى عماد المذهب وأهم مافيه ، كما أن تلك الشعائر القليلة لم يقصد بها التعبد المحض بل الرياضة النفسية ومثلها فى ذلك مثل نظيرتها فى الفلسفة البوذية والبرهمية فى الهند والكنفشيوسية فى الصين ، بدليل تفضيل زرادشت العمل فى الحياة على الصلاة والصوم والأدعية والقرابين ، فعنده أن من يصلح الأرض ويبذر فيها الحب ويرويها أفضل ممن يقرب ألف

(١) المصادر التى يمكن الرجوع لتحقيق هذا الأمر كثيرة جدا والمهديون ومن على شاكلتهم من المسلمين والفرس كثير ، وخاصة من الشيعة العلوية وسيرهم مثبتة فى كتب التاريخ وكتب الملل والنحل : كتواريخ الطبرى ، وابن خلدون ، واليعقوبى ، وابن الأثير ، والمسعودى ، وابن خلكان ، وتاريخ بغداد لأبى بكر البغدادى ، والتنبيه والاشراف للمسعودى ومعجم البلدان لياقوت ، وكتاب الملل والنحل للشهرستانى ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، والفهرست لابن النديم ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى ، وأمالى المرتضى ، والأخبار الطوال للدينورى والفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى ، وتاريخ مختصر الدول للملطى ، ودوائر المعارف العامة .

قربان ومن يصلى عشرة آلاف صلاة وممن يدعو عشرة آلاف دعاء ، بل إنه حرم الصوم لأنه يضعف الإنسان .

وأما الكتاب الذى جاء به زرادشت فهو أفستا Avesta ويظهر أن هذا الكتاب كان يحتوى على آراء غامضة رفيعة لا قبل للعقول العادية حينذاك بفهمها وقبولها بدليل عجز الكثير منهم عن ذلك مما جعلهم يحيطونه بكثير من الخرافات ، وبدليل ماأدى إليه غموضه عند الكثير من اضطرار زرادشت إلى شرحه بكتاب يسمى « زندافستا Zand-avesta » ثم إلى شرحه الشرح بكتاب سماه « بازند » ثم إلى شرح علمائهم هذا الشرح بكتاب سموه يازده ، وبدليل ثالث هو منع كيستاسب تعليمه العامة[1] ، وقد قدمنا الكلام فى هذا التحريم وسداد رأى كيستاسب فيه ، ولم يكن لزرادشت فى هذا الكتاب إلا فضل تقييد ما ارتضى هو وحكماء الفرس من آراء بعد الاستطلاع والمشاورة كما قدمنا فى بيان مذهبه ، ومن أجل ذلك نحن فى غنى عن الخلاف الذى أشار الشهرستانى والمسعودى والقلقشندى فيما إذا كان هذا الكتاب من تصنيف زرادشت أم هو وحى نزل عليه من السماء[2] ، وقد كان لهذا الكتاب أثره فى نشأة الزندقة واشتقاق لفظها نرجئ بيانه إلى موضعه من هذا البحث حيث الكلام فى المانوية لأنه بهم أمس ولبيان مذهبهم ألزم ، ونشير هنا إلى أن كيستاسب الملك سان هذا الكتاب فى هيكل باصطخر ووكل به الهرابذة بعد كتابته بالذهب على جلود البقر[3] ومن أجل ذلك سمى ذلك المكان « دزنبشت » أى حصن الكتاب و « كوه نبشت » أى جبل الكتاب[4] ، وهناك بناء فخم على هيئة برج ما يزال إلى اليوم يعرف بكعبة زرادشت فى أطلال مدينة اصطخر عاصمة الفرس أيام الدولة الساسانية وهى بالقرب من مدينة برسبوليس عاصمتهم أيام الدولة الكيانية[1] .

سادت الزرادشتية البلاد الفارسية ودان بها الملوك والعامة منذ ظهر زرادشت ، فقد بذل كيستاسب جهداً جباراً لحمل الناس عليها وتعرض من أجلها لثورة من أحد عماله وفقد فيها ابنه وكادت تذهب بملكه لولا أن أسعفه الحظ بموت غريمه[2] ، وقد بذل الملوك بعده جهدهم حتى استأثرت الزرادشتية بفارس وبقيت مسيطرة عليها حتى كانت موقعة أربل بين الإسكندر الأكبر ودارا الثالث سنة ٣٣١ ق . م وانهزم دارا فضاع استقلال فارس وانهارت الوحدة الفارسية ، وعم الاضطراب البلاد طوال حكم ملوك الطوائف الذين حكموا البلاد متفرقين أكثر من خمسة قرون ونصف قرن بدأت عقب هزيمة دارا آخر ملوك الكيانية سنة ٣٣١ ق . م وانتهت بقيام أردشير بن بابك بن ساسان أول ملوك الساسانية سنة ٢٢٦ م وران عليها طول تلك المدة الانحلال العقلى والخلقى والسياسى ، وكان لذلك كله أثره فى ضعف الزرادشتية ، ويقال إن الإسكندر أحرق كثيراً من كتب الفرس العلمية وفيها جزء كبير من كتاب زرادشت[3] وأحرق وهدم كثيراً من الآثار الفارسية المكتوبة على الخشب والمبانى ونقل كثيراً منها إلى مصر وبلاد اليونان وكان قد أمر بترجمة بعض ما وجد من كتب فلما ترجمه أحرق أصوله ، فلما قام أردشير ابن بابك سنة ٢٢٦ م وَحَّد البلاد الفارسية وحاول ما استطاع أن يجمع ماتفرق من هذه الذخائر وبعث فى طلبها الرسل إلى الهند والصين ومصر وبلاد الروم ، وجعلها أساس النهضة العلمية فى فارس ، كما جمع ما استطاع من كتب الزرادشتية واعتنقها وعمل بها فأرجع لها بعض سلطانها الذى فقدته أثناء ملوك الطوائف[4] .

(١) مروج الذهب للمسعودى جـ ١ صـ ١١٠ ، والتنبيه والاشراف له صـ ٩٠ والعبر لابن خلدون جـ ٣ (القسم الأول) صـ ١٦١ ، وابن الأثير جـ ١ صـ ١٠١ ، ودائرة معارف البستانى م ٩ صـ ١٩٢ ، ٢٠٧ ، ٢٦٩ ، وصبح الأعشى جـ ١٣ صـ ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) من المبالغة والاغراق فى الضلال والتضليل ما رواه عبد القاهر البغدادى لرجل إسمه أبو القاسم الدمشقى من فرقة تسمى الهيصية (نسبة إلى أبى هاشم المعتزلى) وهى من فرق المعتزلة الخارجة عن الاسلام ، فقد زعم « أن الحروف التى فى القرآن هى الحروف التى فى كتاب زردشت المجوسى بأعيانها لا على أنها مثلها » (الفرق بين الفرق صـ ١٨٥) .

(٣) المصادر المذكورة فى الهامش صـ ١١ .

(٤) ما كتبه الأستاذ سترك M. Setrck فى مادة اصطخر (دائرة المعارف الاسلامية) .

(١) المصدر السابق .

(٢) الأخبار الطوال صـ ٢٦ ، ٢٧ .

(٣) المصادر المذكورة فى الهامش .

(١) الفهرست لابن النديم صـ ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، نقلا عن كتاب التهمطان لأبى سهل بن نوبخت (طبع المطبعة الرحمانية سنة ١٣٤٨ هـ) وتاريخ إيران للاستاذ شاهين مكاريوس صـ ٢٩٣ (طبع المقتطف سنة ١٨٩٨ م) .

كان ضياع جزء من كتاب زرادشت إبان الفتح القدوني مما أوهن الزرادشتية أيام ملوك الطوائف وهيأ لقوم الإتيان بآراء ومذاهب جديدة لم يأت بها زرادشت وحكماؤه ، كما هيأ الفرصة لإحياء كثير من الخرافات والعقائد القديمة التي هي أدنى إلى عقول العامة من الصفوة التي اختارتها الزرادشتية ، لكن ذلك لم يمحها ويستأصلها ، فقد بقيت حية في فارس أثناء حكم ملوك الطوائف على ضعف واستحياء ، فلما جاء بنو ساسان أنهضوها وشدوا سلطانها وجعلوها دينهم الرسمي ، وظلت قائمة حتى بعد فتح المسلمين فارس ، وكانت قد تسللت في الجاهلية إلى البلاد العربية ودانت بها بعض قبائلها النازلة على حدود فارس ، وآمن بها بعض الصحابة قبل إسلامهم[1] ، وكان يدين بها كثير من الفرس في العصر الإسلامي عن رضا من المسلمين عند ماسنوا بهم سنة أهل الكتاب كما بينا في مقال سابق[2] فتركوهم عليها واكتفوا منهم بالجزية ، وكان مما أيدها أن فرض المسلمون الجزية على من أسلم ومن بقي على عقيدته على السواء في أكثر سني الحكم الأموي والعباسي ، وقد اصطنع المسلمون كثيراً من أهلها في الأعمال التي يجهلها الحكام المسلمون كأعمال الدواوين ، بل كان لأهلها ضلع في انتصار العباسيين على الأمويين ، ودارت بينهم وبين المسلمين مجادلات في العهدين معاً ، وتبادلوا في ذلك كتب الجدل ، وكانت لهم أياد على كثير من العلوم المحدثة في الإسلام إلى وقت متأخر ، ويقول الأستاذ لينجورث دمز Longworth Dames : « إن القصص التي يستطاع إرجاعها إلى أفستا بقيت معروفة في زرنكة[3] حتى زمن الفردوسي سنة ١٠٠٠ م[4] » وكان لهذه القصص فضل على الفردوسي إذ كانت بعض مادته في تأليف الشاهنامه ، وقد انتشرت الزرادشتية حتى فيما وراء بلاد فارس كالصغد وبلاد الترك قديماً فيما وراء النهر في العصر الإسلامي فقد امتدت إلى هذه البلاد في القرن التاسع الميلادي[5] ، وكانت في الهند في القرن الرابع عشر الميلادي وأهلها يسمون هناك الإكنواطرية[1] ، بل لقد نشرها هؤلاء الهنود وإخوانهم من الفرس فيما حول باكو في القرن الثامن عشر[2] ، وهم لا يزالون إلى الآن بالهند ويسمون الفرسيين ، وكان أولهم قد هاجروا إليها من فارس عند ما فتحها المسلمون[3] ولم يضف شأن الزرادشتية — إلى ما قدمنا — إلا مرقيون وابن ديصان ومانى .

محمد عبد الحليم النجار

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ١٠٣ ، وجاء في هامش الصفحة أن المترجم الألماني لكتاب المال والنحل للشهرستاني أفاد أن الاكنواطرية مأخوذة من أجنيهترا وهي نار المقدسة التي تتأجج إكراماً لإله النجوم .

(٢) ما كتبه الأستاذ بارتولد في مادة باكو في دائرة المعارف الاسلامية

(٣) المصدر السابق ، وكتاب « تاريخ إيران » للأستاذ شامين مكاريوس ص ٢٢٣ .

(١) الأعلاق النفيسة لابن رسته ص ٢١٧ ، والمعارف لابن قتيبة ٢٩ .

(٢) الرسالة : العدد ٦٥٢ ص ١٤٣٢ ، ١٤٣٣

(٣ ، ٤) زرنكة الاسم القديم لاقليم سجستان (مادة أفغانستان في دائرة المعارف الاسلامية .

(٥) انظر ما كتبه الأستاذ بارتولد Barthold في مادة باكو في دائرة المعارف الاسلامية .

٤٧ - ٢٦

وزارة المعارف العمومية

إدارة التوريدات

تقبل العطاءات بمكتب حضرة صاحب العزة وكيل وزارة المعارف المساعد بشارع الفلكي بمصر لغاية الساعة العاشرة من صباح يوم الثلاثاء الموافق ٢٥ يونية سنة ١٩٤٦ عن توريد أدوات التعليم مثل براجل نحاس وألوان مائية وزيتية وورق أنواع مختلفة ومساطر وألواح اردواز الخ .

ويمكن الحصول على شروط وقوائم الناقصة من إدارة التوريدات بشارع الفلكي بالقاهرة نظير دفع (ثلثمائة مليم) ثمن النسخة الواحدة .

٥٤٢٢